مجموعة محمد وصحبه :

اللّهُ غالِب

إعداد

أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي بالفجالة

رسوم
عبد الرحمن بكر

لم يَلتجئْ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم إلى أحدٍ غيرَ اللّـه ، حينما اشتدَّ به إيذاءُ الكافرين ، الذين شاء لهم عنادُهم أن يَشْتدوا فى إيذائِه إيذاءً كانوا يَشعرون معه أنهم قسَوْا فيه ، وتمادَوا إلى أبعدِ حد .. وأن كلاً منهم حينما كان يَخلو بنفسِه ، يجد لَذعةَ الضّميرِ تُرهقُه ، وتقسو عليه ، لأنه آذى مَن لا يَستحقُّ الإيذاء ، وآلم مَن يستحقُّ الإكرامَ والتّقديس ، والإجلاَل والاحترام ..

ولكنْ هو الحسدُ القاتل ، والغيظُ المحنِق ، والغَيرةُ الكبيرة ، دفعت هؤلاءِ إلى هذه الهوّةِ السّحيقة ، فمضَوْا ينكّلون بأكرم إنسانٍ عرفوه ، وأشرفِ مخلوق رآه الوجود ..

وما كان الرَّسولُ الكَريمُ ليقاومَ هذا العنفَ والظُّلمَ والجبَروت ، فأعوانُه قِلّةٌ ليس فى استطاعتِهم الوُقوفُ أمام هؤلاء الطُّغاة . وليس من طبيعتِه هو ﷺ مقابلةُ الاعتداء باعتداءٍ آخر ، وإنّما هو مَطبوعٌ على العَفو ، مجبولٌ على التّسامحِ والمغفرةِ لمن أساء ..

لم يَلتجئْ إلى أحدٍ من النّاس ، لأنّه يرَى فى الالتجاءِ إلى الخَلق ، عدمَ ثقةٍ باللّهِ الذى بيدِه مقاليدُ الأمور ، وإنّما التجأ إلى اللّهِ الذى أرسلَه رحمةً للعالمين ، ووعدَه بالنّصر المُبين .. !!

وما أجملَ العبدَ يجدُ فى حِمَى خالقِه وبارئه المنعةَ من كلِّ شر ، والحمايةَ من كلِّ ضُر ، فيتضاءلُ فى نظرِه إيلامُ النّاسِ له ، وقسوتُهم عليه ،



وسخريتهم به . ! وما أجملَ العبدَ يأنَسُ بربِّه ، ويُصبحُ قويًا كأقوَى ما يكونُ النَّاس ، عزيزَ النَّفس ، موفورَ الكرامة . ! وما أجملَ العبدَ يَفرُّ من إخوانِه عبيدِ اللّه ، الذين نفخَ الشَّيطانُ في أوداجهم وأترفَهم ، وعركَ آذانَهم ، فخيَّل إليهم أنَّهم جبابرةُ العالَم ، وأباطرةُ الوجود ، ولو عرفوا الحقيقةَ كما هي ، لَهالَهم ضعفُهم ، وأحزنَهم أنهم أذلَّةٌ ضِعاف ، لا يملِكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا ، ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورا . !

إن العبدَ ـ حينذاك ـ سيصفو ما بينه وبين ربِّه ، ويرتفعُ بروحانيَّتِه إلى أسمَى ما يتمنَّى ، وأرفع ما يَريد ، وسيجدُ لـذَّةَ القُربِ تملأُ جوانبَ نفسِه ، وتُغرقُه في جوٍّ من الصَّفاء والنُّور ، لا يدركُه إلا العالِمون . !

وهكذا كان يَلتجئُ الرَّسولُ الكريمُ
إلى ربِّه ، وفي أجملِ الأوقاتِ
حين تنامُ العيونُ ،
وتَسبحُ الأرواحُ
في عوالمَ

طليقة ، متحرِّرةٍ من القيودِ القاسية ، والأصفادِ الأليمة ..

وفى سكون اللّيلِ وهدوئه ، تتجلّى رَوعةُ العبادة ، وجلالُ المُناجاة ، وحرارةُ الدُّعاء !! لقد نامتِ الأعيُن ، ورقدَتِ الجُنوب ، واطمأنّت فى مضاجعها ، ولم تَنمْ عينٌ ساهرةٌ فى عبادةِ اللّه !!

وكان السّائرُ بجوارِ بيتِ الرَّسولِ الكريم ، يَسمعُ صوتًا رقيقًا رحيما ، يخاطبُ القلوبَ والمَشاعر ، ويغزو الإحساسَ والوجدان ، ولا يجدُ مَن يسمعُه مناصًا من التّوقُّفِ قليلاً ليَستمعَ إلى هذا الصَّوتِ الطّاهر ، ويسبحَ فى عوالِمَ قدسيَّةٍ سماويَّة ، حينما يتفهَّمُ هذه العباراتِ التى يتلوها ذلك الصَّوتُ العابد !!

لم يكن ذلك سوَى صوتِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم ، إذ كان



يجدُ اللّيل فرصةً ليُقبلَ على اللّه ، ويناجيَه في الصّلاةِ بالقرآنِ الكريم .. لم يكنْ قارئًا بلا تفكيرٍ أو تدبير ، وإنّما كان يدركُ معانِيَ القرآنِ كما أرادها اللّه ، متدبّرًا مفكّرا ، ومن هنا سرُّ التّأثُرِ بما يقرأ ، فلا تلبثُ الدُّموع الغزيرة أن تسيلَ على خدّيه .. وسرُّ التّأثيرِ في السّامعِ ، فلا يجدُ مناصًّا من المكوثِ حتّى يفرغَ هذا القارئُ من قراءتِه ، مهما طالَ به الوقت ، وامتدّت به السّاعات !!

وقراءةُ القرآنِ في الصّلاةِ عبادةٌ مزدوجة ، لأنّ الصّلاةَ في ذاتِها عبادة ، وقراءةُ القرآنِ في ذاتِه عبادة .. فإذا ضَمَمتَ إلى هذا فَراغَ القلبِ من النّاس ، وخروجَه من الدُّنيا التي يَتكالبُ عليها المعجَبون بها ، وضممتَ إليه أيضًا جَلالَ اللّيلِ وخلوَّه من احتدامِ المطامع ، واقتتالِ الشّهوات ، وتناحُرِ الغرائزِ الآدميّةِ في سبيلِ اللّذّةِ والمتعةِ والمادّة ، أدركتَ جلالَ هذا الصّوت ، وجمالَه ، واجتذابَه للقلوبِ الصّلدةِ القاسية ، وغزوَه الأفئدةَ الضّالّةَ الحائرة .. وأدركتَ سرَّ إقبالِ بعضِ المشركين إلى دارِ الرّسولِ الكريم ، واختبائِهم لئلاّ تراهمُ العيون ، وتلوكَ سيرتَهم الألسنة .. !

إذا جَنَّ الظّلام ، وهدأتِ الحركة ، ولم يعُدْ في مكّةَ سائرٌ هنا أو هناك . أبصرتَ أشباحًا تتسلّلُ لواذا ، إلى بيتِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم .. أمّا الأوّل فسفيانُ بنُ حرب ، وأمّا الثّاني فأبو جهلِ ابنُ هشام ، وأمّا الثّالث فالأخنسُ بنُ شريق .. !! هؤلاء من أكابرِ المشركين ، فلماذا تسلُّلُهم تحتَ جُنحِ الظّلام إلى منزل محمّدِ ابنِ عبدِ اللّه ؟! إنّهم يُخالفونه في الدّين ، ويعلنون

عليه ثورةً ماحِقة ، وحربًا ضروسًا لا يَهدأ لها أوار ، ولا يَستقرُ لها حال .. فلماذا يذهبون إليه ؟!

إنّ كلَّ واحدٍ منهم لم يرَ الآخَر ، فلقد ذهب فريدًا ، واختارَ رُكنًا استَتَر فيه ، لا يرَى أحدًا ، ولا يراهُ أحد ، ولكنّه يسمعُ الصَّوتَ العجيبَ يتلو ذلك الكلامَ الحُلو ، الذى ارتفعت ألفاظُه إلى أسمَى ما عرف العربىُّ من ألفاظ ، وارتفعت معانيه إلى أسمَى ما عرف العربىُّ من معان .. أمَّا أسلوبُه ، فذلك هو السِّحر الذى لا يُدرَك كُنهُه ، ولا تُفهَمُ غايتُه .. لقد خبر العربُ الكلام ، وأصبح لهم ذوقٌ دقيق ، وحسٌّ مرهَفٌ يزِنون به الكلامَ وزنًا ، كما يزِنُ الصّائغ بميزانِهِ الدَّقيقِ مالا يكادُ يرى من الذّهب والنُّضار .. وينقدون الكلامَ نقدًا ، كما ينقدُ الصَّيرفىُّ مالا يكادُ يَشتبه فيه إنسانٌ من النُّقود .. ولهذا ، فإنَّ كلَّ عربىٍّ يُقرُّ بالعجزِ حينما يستمعُ إلى هذا الكلامِ العجيب ، الذى يقولُ عنه محمَّدُ ابنُ عبدِ اللّه ، إنّه القرآنُ الكريم ..

إنَّ كلَّ عربىٍّ يسلِّمُ بينه وبين نفسِه بعظمةِ القرآن ، وبلاغةِ القرآن ، وأنّه لا يمكنُ أن يكونَ من كلامِ البَشر ، فليس فيه طابَعُهم ، ولا يدخلُ هذا فى مقدورِهم .. أمّا إذا جمعَه المجلسُ مع إخوانِه المشركين ، فلا يسمعُ غيرَ الجحودِ والنُّكران ، والنَّقدِ اللاّذِع على غيرِ أساس ..

وإذا رجعَ بك التّاريخُ القَهقَرى ألفَ سنةٍ وأربَعمائةٍ وخمسَ عشرةَ تقريبًا ، لرأيتَ هؤلاءِ المشركين الثّلاثة ، ينصِتون إلى ما يتلو

الرَّسولُ الكريمُ من قرآن ، فى حِرصٍ بالغ ، وافتتانٍ كبير .. وكأنَّما أجسامُهم آذانٌ مُفتَّحة ، يصِلُ منها كلُّ لفظٍ إلى مَوضِعِه من قلوبهم ، ومكانِه من أفئدتِهم .. وأبصارِهم ، وقد طافت أفكارُهم فى عوالِمَ غيرِ العوالِمِ التى يعيشون فيها ، وسبحتْ أرواحُهم فى سماواتِ الطُّهرِ والنَّقاءِ والصَّفاء .

كان الصَّوتُ يَصِلُ إلى كلٍّ منهم ، وكأنَّما يخاطبُه هو دونَ غيرِه ، ويَعنيهِ دون سِواه .. يصلُ إليه هادئًا ، رائعًا ، فيه جَلالُ الحق ، ورَوعةُ الفَصاحة ، وفيه صدقٌ لا يُخطئُ موضِعَه من المعنَى الذى يريد ..

وينسَى كلٌّ منهم نفسَه فيبكى .. !!

فإذا أفاق من ذُهوله ،

واستيقظَ من هذه

النُّورانيَّةِ الغامرة ، تذكَّرَ أنه من المشركين ، وأنّه لابدَّ أن يقاومَ محمَّدًا وأن يكذِّبَ بما جاء به ، وأنّه يجبُ أن يتزعَّمَ الحركةَ لئلاَّ تضعُفَ أو تهِن ، فتكون الطّامَّة ، ويندفعُ آلافٌ من العربِ إلى أحضانِ الإسلام ..

إذا تذكَّر هذا ، وجدتَه مسحَ دموعَه بسرعةٍ والتفتَ يَمنةً ويَسرة ، لئلاَّ يكونَ قد رآه أحدٌ من أتباعِه وشيعتِه ، ويظلُّ هكذا مأخوذًا بما يسمعُ من آياتٍ بيِّنات ، وعظاتٍ واضحات . حتى يطلُعَ الفجرُ فيأخذَ سبيلَه إلى بيته .. !!

ولا يكادُ يسيرُ كلٌّ منهم خطواتٍ قليلةً حتَّى يرَى صاحبَيْه . ويجمعُهم الطَّريق ، فيعجب ، ويحارُ في أمرِه ، وتذهلُه الدَّهشةُ المفاجئة ، وتتلاقَى النَّظرات ، ثم يفهمُ كلٌّ منهم أين كان صاحبُه . ! لا سبيلَ إلى التَّضليل ، ولا داعِيَ للنُّكرانِ والجُحود .

ـ لقد كنتَ تستمعُ إلى القرآنِ يتلوه محمَّدٌ في صلاتِه ، وبقيتَ طَوالَ اللَّيلِ حتى طلعَ الفجر ، أليسَ كذلك ؟!



قال أبو سُفيانُ بنُ حربٍ مجيبًا أبا جهلٍ بنِ هشام :

ـ أجَل ، ويخَيَّلُ إليّ أنَّك فعلتَ ما فعلتُ .

ويصمُتُ أبو جهل ، ويتكلَّمُ الأخنسُ بنُ شريق :

ـ إنّنا نكذِّب أنفسنا ، ونُنكرُ عقولَنا .. إن هذا الكلامِ الذى سمعناه ثلاثُتنا من محمَّدٍ لَحلاوة ، وإنَّنى مأخوذٌ بما سمعت .

وماتتِ الألفاظُ على لسانِه ، فلقدِ اكفهرَّ وجهُ أبى جهل ، فخشِيَ الأخنسُ أن تسوءَ العاقبة ، وخاصَّةً فى هذا اللَّيلِ الصَّامتِ الذى آذَنَه الفجرُ بالضَّوءِ والنّورِ والحياة ، فإنَّ أخشى ما يخشَون أن يراهم أحدٌ فى هذا الوقت ، ويعرفَ من حديثِهم أين باتوا اللَّيل ، وقضَوْا هذا الوقتَ الطَّويل .. !!

ولام كلٌّ منهم صاحبَه ، فلا يجدُرُ بهم ـ وهم من المَنزلةِ السَّامية ، والمكانةِ الرَّفيعةِ بين قومِهم وعشيرتِهم ما هم ـ أن يصيخوا لما يقولُ محمَّد ، ويستمعوا لما يتلوه من قرآن ، مدَّعيًا أنَّه من عندِ اللَّه . ولماذا اختارَه هو من بينِهم ؟ واختصَّه بهذه المكرُمةِ السَّامية ؟

ولكنَّ صوتَ الضَّميرِ كان يُجيبُ على هذه الأحاديثِ النَّفيسةِ السَّريعة ، فلن يصلَ واحدٌ منهم إلى ما وصل إليه محمَّدٌ من سموِّ النَّفس ، وشرفِ المحتَد ، وعلوِّ الهمَّة ، والبعدِ عن محارمِ اللَّه ، كائنةً ما كانت ، وما كان واحدٌ منهم صاحبَ سيرةٍ

عطِرةٍ في صباهُ كما كان ذلك لمحمَّدِ ابنِ عبدِ اللَّه .. !!

وقال قائلُهم في عَزمٍ وإصرار :

– لا تعودوا . فلو رآكم بعضُ سُفهائِكم لأوقعتم في نفسِه شيئا .

ثمَّ انصرفوا ، على ألاّ يعودَ منهم أحدٌ إلى خارجِ دارِ محمَّد ، يستمعُ ما يقرأ ويتلو من القرآن . !

وإذا كانتِ النّفسُ بصيرةً بقيمةِ الشّيء ، عالمةً بأسرارِه ومزاياه ، فمِنَ الصّعبِ أن تنصرفَ عنه ، أو تبتعدَ عن مُحيطه ، حتّى ولو كانت غيرَ مُؤمنةٍ به ، وبخاصَّةٍ لو كانت تُظهرُ عدمَ الإيمان بـه ، وتكـذّبُ نفسَها ، وتتظاهرُ بضآلتِه وقلّةِ قيمتِه ، وتفاهةِ شأنِه .

وهذا ما كان من أمرِ هؤلاء الثّلاثةِ الكافرين ، الذين لم يُطيقوا في اللّيلةِ الثّانية صبرًا ، وسَرعانَ ما وجد كلٌّ منهم طريقَه الخفيَّ حينما جَنَّ اللّيل ، وأقبلَ الظّلام — إلى دارِ محمَّدِ بنِ عبدِ اللَّه ، يستمعُ لما يقرأ ، وينصتُ لما يقول .

كان كلٌّ منهم يعتقدُ أنّه وحدَه الذي نكثَ العهدَ الذي قطعَه مع زميليْهِ بالأمس ، وأنّه الوحيدُ الذي لم يستطعْ صبرًا عن سَماعِ هذا الكلامِ الجميل ،



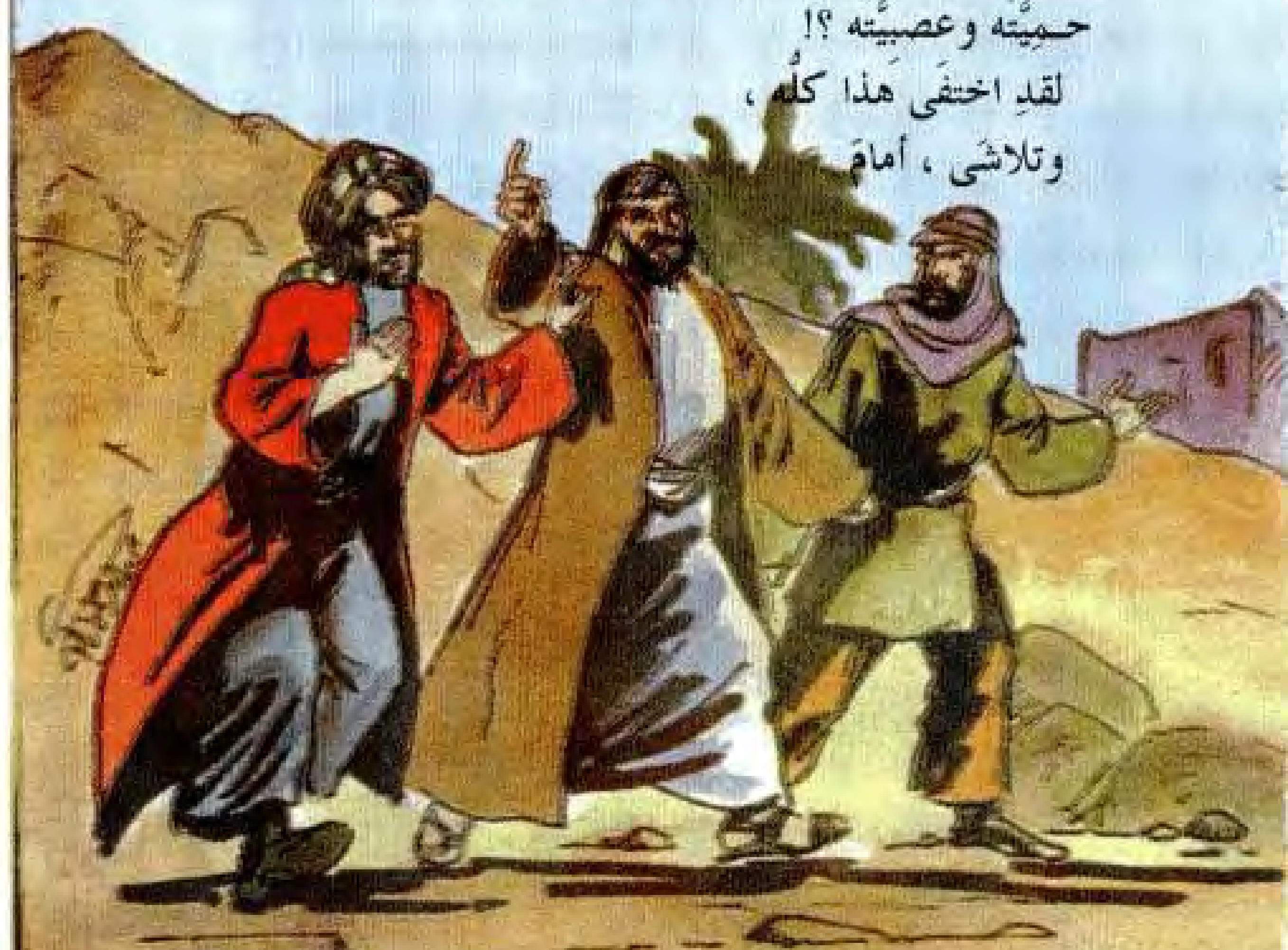
وأنَّ أمرَه لن ينكشفَ ؛ لأن أحدًا لن يراه .

ولكنَّ كلاًّ منهم ما علم أنَّه أحدُ ثلاثةٍ غزا قلوبَهم القرآن ، وجذبَ أفئدتَهم ما أُنزلَ على محمَّد ، وأنَّ الأمرَ ليس كما تصوَّروا ، سهولة ، ويُسرا ، وإنَّما هو أعظمُ ممَّا يتصوَّرون ، وأكبرُ ممَّا يعتقدون ..

إنَّهم كارهون لهذا الدِّينِ الجديد ، ناقمون على صاحبِه ، فلماذا إذَن يجشّمون أنفسَهم هذا العَناء ، والألـمَ الشَّديد ، ويَعرِّضون أنفسَهم للقيلِ والقال .. !

إنَّ أحدَهم ليجلسُ مُستتِرًا مستخفِيًا أمامَ دارِ محمَّد ، وكأنَّما هو سائلٌ حقيرٌ يستجدى الأكُف ، ويطلبُ الإحسان ! فكيف بلغت به الحالُ إلى هذا الوَضعِ الشَّاذ ؟ وأين ذهبتْ عزَّتُه وكرامتُه ؟ وأين ذهبت حميَّتُه وعصبيَّتُه ؟!

لقدِ اختفَى هذا كلُّه ، وتلاشَى ، أمامَ



عظمةِ الرّوحِ ، وجَلالِ كتابِ اللهِ ، وبلاغتِه وفَصاحتِه ، وما أضعفَ النّفسَ البشريَّةَ حينما تغزوها هذه العوامل ، فتأخذَ عليها كلَّ طريق ..!

وطلعَ الفجر ، وقام كلٌّ منهم إلى دارِه ، ولكنّه كاد يُصعَقُ حينما اصطدمَ بالواقعِ ، وجابَهتْه الحقيقة ، وعلِم أنّه لم يكُنِ النّاكثَ الوحيدَ لِما عاهدَ عليه زميلَيْه ، ولكنّهم جميعًا نكثوا العهد ، وجاءوا إلى بيتِ محمّدٍ يستمعون إلى ما يقرأ ، وفضحَهم الفجر ، وجمعَهم الطّريق ، كما جمعهم فى اللّيلةِ الأولى ..

تلاوَموا ، كما تلاوموا أوّلَ ليلة ، وتعاهَدوا ألاَّ يأتِيَ واحدٌ منهم بعدَ ذلك أبدا ، كما تعاهَدوا فى اللّيلةِ السّابقة ، ثم انصرَفوا .

ولكن ..

طلعَ الفجرُ فى اللّيلةِ الثّالثة ، وجمعهم الطّريق ، كما جمَعَهم فى اللّيلتَيْنِ السّابقتين ، إذَن ، فلا يمكنُهم أن يصبِروا على البُعد عن التّمتُّعِ بما يتلو محمّدٌ من قرآنٍ ، ويقرأ من كتابِ اللّه .. وإذن ، فأمرُهم مفضوحٌ لا محالة ، ولابدَّ أن يتخِذَ قومُهم وعشائرُهم معهم طريقًا آخرَ غيرَ هذا الطّريق .. إلاّ إذا رجعوا إلى صوابِهم ، وتركوا الاندفاعَ مع عواطفِهم وأحاسيسِهم ، وعادوا إلى عاداتهم الجاهليَّة ، وإلى أصنامِهم يعبدونها ، ويقدّسونها ، ويتقرّبون بها إلى الآلهة ..

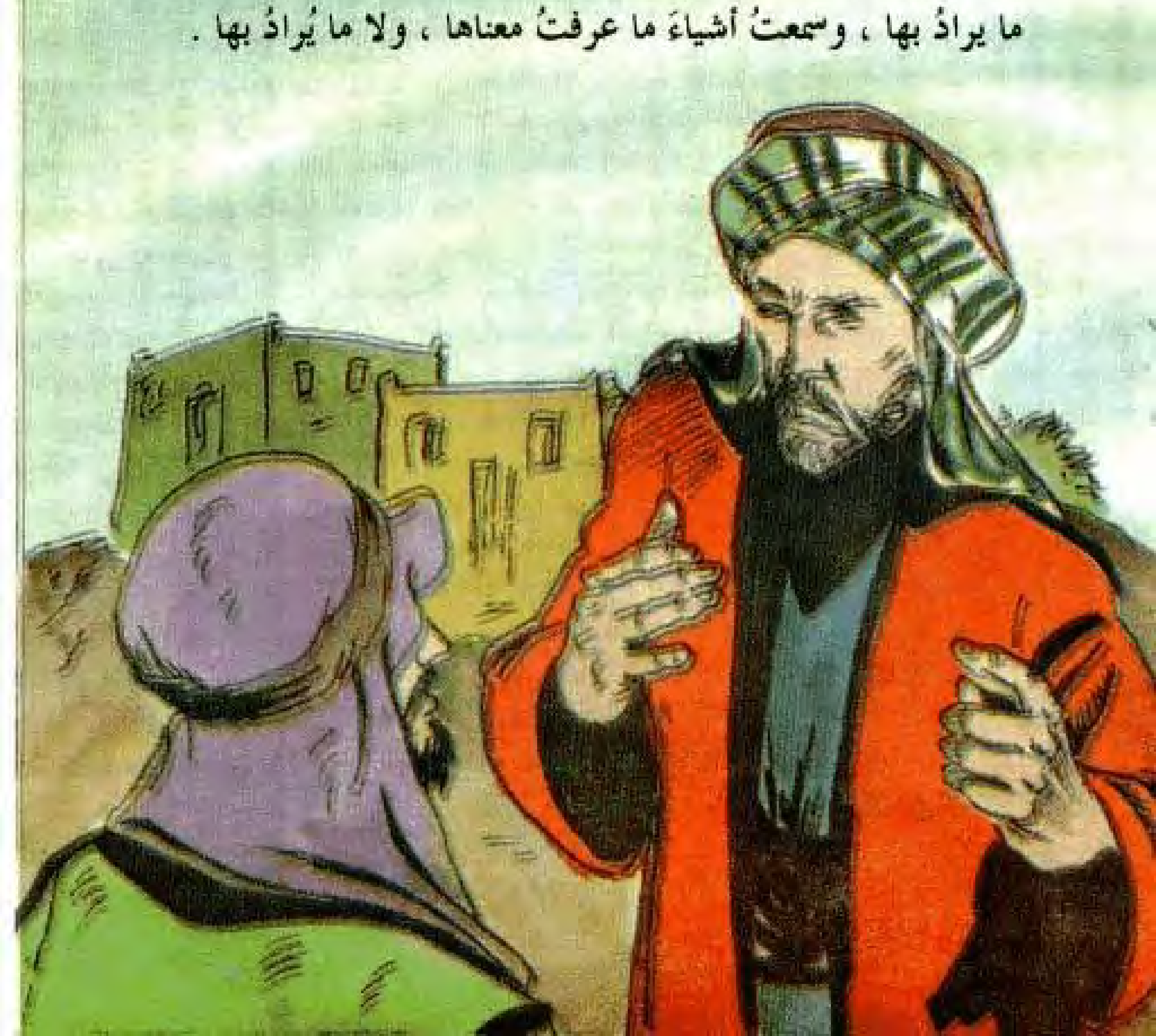
وقال قائلُهم للمرّة الثّالثة : لا نَبرحُ حتّى نتعاهدَ ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ، وتفرّقوا ، وفى فؤادِ كلٍّ منهم عاطفةٌ مهتاجة ، وشعورٌ ثائر ، وإحساسٌ عميقٌ بأنّه يكفرُ بالعقل ، ويتعامَى عنِ الحق ، ويتصامَمُ عن صوتِ الضّميرِ ، الذى يهتفُ بـه فى قوّةٍ وجَبروت ، أنْ

يدعَ ما يعبدُ آباؤه من قبل ، وأن يُقبلَ على هـذا الدِّيـنِ الجديـد ، ففيـه سعادتُه وسعادةُ النّاس أجمعين ..

وأصبح الصَّباح ، وأخذَ الأخنسُ بنُ شَرِيق عصاه ، ثم خرج إلى بيتِ أبى سفيانَ بنِ حرب .. وتقابل الزَّميلان ، وساد بينهما شعورٌ فهمَه كلٌّ منهما دون صوتٍ أو حركة .. ولم يستطعِ الأخنسُ صبرًا ، فقـال لأبي سُفيان : أخبِرْني يا أبا حَنظَلةَ عن رأيِك فيما سمعتَ من محمَّد .

فقال أبو سفيان ، وكأنّما وجدَ الفُرصَة ليعبِّرَ عن رأيِه فى صراحةٍ ووضوح : يـا أبا ثعلبـةَ ، واللّهِ لقد سمعتُ أشياءَ أعرِفُها ، وأعرفُ ما يرادُ بها ، وسمعتُ أشياءَ ما عرفتُ معناها ، ولا ما يُرادُ بها .



وصمتَ قليلا ، وقد وجدَ راحةً فى هـذه الصَّراحةِ التى قد يكونُ فيها حجةٌ وبرهانٌ على عدمِ فهمِـه ، وحـدَّةِ ذهنِه ، إذ كيـفَ لا يفهمُ وهو العربىُّ الصَّميمُ بعضَ ما سمع مما يتلو محمَّد ؟

وقال الأخنسُ فى صراحةٍ وإقرارٍ بالعجز :

ـ وأنا والذى حلفتَ به ، كذلكَ !

وخرج من عندِه ، وهو مسرورٌ بهذه النَّتيجة ؛ لأنَّه وجد مثيـلاً لـه ، وشبيهًا به .. فليس وحدَه الذى قصَّر عن فهمِ بعضِ ما يتلـو محمَّدٌ من آياتٍ بيِّنات ، وعِبرٍ واعظات .

وكأنَّما أرادَ أن يستوثقَ من أبى جهلٍ ، ومبلغِ فهمِه لما يسمع ، وهـل فهـمَ كـلَّ ما سمعَ من محمَّد ، أو شأنه كشأنِهما .. فأسـرعَ إلى دار أبى جهل ، واستأذن عليه ، وبادرَه بقولِه :

ـ يا أبا الحَكَم ، ما رأيُك فيما سمعتَ من محمَّد ؟

فأطرقَ أبو جهلٍ قليلا ، وحزَّ فى نفسِه أن يعلنَ الأمرَ على حقيقتِـه ، لأنَّه لا يرفعُه ، وإنَّمـا سيدلُّ علـى عصبيَّتِـه المَقيتـة ، وحميَّتِـه الجاهليـة ، وعلى أنَّه رجلٌ بعيدٌ عنِ الحقِّ والعدل ، لا يتَبعُ سوَى شَهوةِ الرِّئاسـة ، ولا يستمعُ لغيرِ غريزةِ السُّلطان .

بيدَ أنَّ هذا كلَّه لم يمنعْه من أن يقولَ كلمةَ الحق ، ويعلنَ رأيَـه على ما به من علاَّت ، جارَ فى قوَّة : ماذا سمعْـت ؟ تنازعنـا نحن وبنـو عبدِ مَنافِ الشَّرف .. أطعَموا فأطعمْنا ، وحملوا فحملْنا ، وأعطوا فأعطيْنـا ، حتَّى إذا تحاذَيْنا على الرُّكبِ وكنا كفرسَىْ رِهان ، قالوا : منَّا نبىٌّ يأتيه الوحىُ من السَّماء ، فمتَى تدركُ مثلَ هذه ؟

وصمتَ أبو جهل ، وعجِبَ الأخنسُ لهذه الرّوحِ التى فاح ريحُها ، يعصفُ بما للإنسانيَّةِ من مُثلٍ عُليا ، وآمالٍ سامية ،

وأمانيَ رفيعة . أهكذا تقضى نوازعُ الشرِّ فى الإنسان ، وتدفعُه مظاهرُ السُّلطان ، إلى أن يُنكرَ الحق ، ويتعامَى عن الخيرِ يسعَى إليه ، ويرفضَ الإصلاحَ يأتى نحوَه ، والسَّعادةَ الغامِرةَ تحُل بداره ، وترفرِفُ أجنحتُها على عشيرته ؟! أمِن أجلِ الدُّنيا : مظهرِها ونعيمِها . مظهرِها الكاذبِ ونعيمِها الفانى ، تُحارَبُ المبادئُ القويمة ، وتُرفَضُ الأوضاعُ الصَّالحة ، ويتلاشى صوتُ الحقِّ في مَعمعَةِ الباطل ، وثورةِ البَغيِ والطُّغيان ؟

تبًّا لكِ أيتها الإنسانيَّةُ العاتية ، وسُحقًا لهؤلاء الذين يعملون لمصالِحِهم الشَّخصية ، ويرتفعون على أشلاءِ الضَّحايا ، الذين لا جريرةَ لهم ولا ذنبَ إلا استجابتُهم لهؤلاء الباغينَ ، واستسلامُهم لأولئك الأوغادِ المارقين .

ورأى أبو جهلٍ ما يعتمِلُ فى نفسِ الأخنسِ من ثورةٍ فكريَّةٍ عنيفة ، وفهِمَ كلَّ شيء ، ومع هذا فهو لا يبالى بكلِّ أولئك ، مادام يصلُ إلى ما يبغى ، وينفِّذُ ما يريد .



وانتبهَ الأخنسُ من غفلتِه ، أو بالحرِىِّ من تفكيرِه ، على صوتِ أبى جهلٍ وهو يقولُ فى غيظٍ وحسد : واللهِ لا نؤمنُ به أبدًا ، ولا نصدِّقُه .

وذهِل الأخنسُ لهذا العزمِ الخاطئِ والتصميمِ الآثم ، ولكنّه لم يجدْ ما يقولُه لأبى جهل ، لأنّه يخافُه ويخشاه ، بيدَ أنّه وجد ما يقولُه لنفسِه ، وهو سائرٌ فى الطّريقِ إلى منزلِه ، تاركًا أبا جهلٍ فى حِقدِه وغَيظِه :

إذا كانت هذه حالُنا جميعًا نحن الذين لا نؤمنُ بمحمَّد . فلا شكَّ أن ربَّه الذى أنزل عليه هذا الكتاب ، سينصرُه علينا ، ويظفِّرُه بنا ، فما أقوى انتصارَ المبادئ ! يؤمن بها أهلُها ، ويخلِصون فى سبيلِ تحقيقِها ، والعملِ على إخراجِها من حيِّزِ القوّةِ إلى حيزِ الفعل . وإنَّ أخشى ما أخشاه أن نذهبَ ضحيّةَ العصبيّةِ الكاذبة ، والحميّةِ العَمياء .

ولكنْ ، أحقًّا ما يدَّعيه محمّدٌ من وجودِ إلهٍ أرسلَه ، وأنزل عليه هذا الكتابَ الذى يتلوه ؟ أنا أومنُ بهذا عقيدةً لا أجدُ من نفسى الشّجاعةَ على إعلانِها ، فهل أجدُ من نفسى القوّةَ على كِتمانِ ذلك وإخفائِه ؟!

إنَّ من الواجبِ أن أمضىَ مع الرَّكبِ حتّى تحقّقَ الأيامُ خُذلانَ هذا الدِّينِ الجديد .

ولكنْ ، أيخذل محمَّدٌ وأصحابُه ، وننتصرُ عليه مع إيمانِنا بصدقِ مبادئِه وكذبِ عقائِدنا ؟ وصمتَ قليلا ، ثمَّ اربدَّ وجهُه واضطرب ، فكأنّما سمعَ صوتَ القَدرِ يهتفُ به فى قوّةٍ وجبروت :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

